النقابات الاسلامية

للأستاذ برنارد لويس

ترجمة الأستاذ عبد العزيز الدوري

— ٢ —

كانت الحركة الإسماعيلية قوة تهذيبية عظيمة، اختصت بإنشاء مدارس وجامعات أشهرها جامعة الأزهر في القاهرة وبتصنيف دائرة معارف واسعة تذكرنا بحركة التأليف الأنسكلوبيدية في فرنسا في القرن الثامن عشر. وفي هذه الموسوعة المسماة «رسائل إخوان الصفا» نجد تقريباً كل الآراء التقدمية في ذلك العصر وإشارات قليلة ثمينة إلى نظم تشكيل الجمعيات، ومنها نعلم بوجود جمعيات لإخوان الصفا في جميع أنحاء الإمبراطورية تعمل لبث آرائها بين كل طبقات الشعب وخاصة بين الصناع وأصحاب الحرف[1]

يرى الأستاذ ماسنيون أن الحركة الإسماعيلية هي التي أوجدت الطوائف الإسلامية وأعطتها ميزتها الخاصة التي حافظت عليها حتى الآن، إذ يقول: إن الطوائف الإسلامية كانت قبل كل شيء سلاحاً شهره الدعاة الاسماعيليون في كفاحهم لضم الطبقات العاملة في العالم الإسلامي لتكوين قوة منهم تستطيع قلب الخلافة وكل ما تمثله؛ وللتوصل إلى استغلال أصحاب الحرف أوجدوا الطوائف وسيطروا عليها. وهكذا أصبحت لها خاصيتان: (أولاً) كونها أصنافاً للحرف و (ثانياً) كونها مؤسسات أخوية إسماعيلية[2]

دعنا نفحص الدلائل التي تؤيد هذه النظرية. يجب قبل كل شيء ملاحظة اهتمام الاسماعيلية العظيم بطبقات أصحاب الحرف فقد خصص فصل كامل في رسائل إخوان الصفا للنظر في الحرف اليدوية وتبويبها وتصنيفها ونبلها. ونهضنا بصورة خاصة الفقرة التي قسم فيها الذين لا يمتهنون الحرف كما يلي: قسم لا يمتهن الحرف كبرياء وأنفة، وقسم لزهده كالأنبياء، وقسم يقلدهما لكسله وقلة نشاطه كالشحاذين وغير الماهرين من الصناع أو لتراخ في الطبيعة وضعف في العقل كالنساء وما يشبههن من الرجال. فالإشادة المقصودة بأصحاب الحرف بينة، والأمثلة الأخرى على اهتمام الاسماعيلية بالحرف كثيرة. وهناك عامل ثان وهو الفرق بين وضعية الطوائف في عهد الفاطميين وبينها في عهود الدول السنية. إذ كانت الطوائف تحت الحكم السني مضطهدة وخاضعة لقيود لا تعد، ومحرومة من حقوق قانونية. وكان هناك موظف حكومي يدعى المحتسب مهمته الأساسية مراقبة الطوائف وقتل أية محاولة للعمل المستقل فيها منذ البدأ، ولدينا أدب ممتع ضد هذه الطوائف يظهر قلة ثقة الدول السنية بها، ويظهر ذلك خاصة في كتب الحسبة أي الكتب التي كتبت لفائدة المحتسب عن خطر أهل الصنائع وعن أحسن الطرق للسيطرة عليهم، وقد وصلتنا هذه الكتب من محلات متباينة كالقاهرة وحلب ومالقة

نلاحظ الفرق في وضعية الأصناف تحت حكم الفاطميين، إذ كانت تتمتع برخاء عظيم. فقد كانت معترفاً بها من قبل الدولة، ويظهر أنها كانت تتمتع بامتيازات كثيرة، وأنها لعبت دوراً هاماً في النشاط التجاري الذي حصل في العهد الفاطمي، ففي هذا العصر نشأت نقابة الأساتذة والطلاب التي تؤلف الجامعة العظيمة أي الأزهر الذي مر ذكره. ثم قضى صلاح الدين على الخلافة الفاطمية ١١٧١ م، وأعيدت مصر إلى الحكم السني وفي الحال جردت الطوائف من أكثر حقوقها وامتيازاتها وأخضعت لنظارة دقيقة

وهنالك عامل ثالث يؤيد هذه النظرية، وهو الأثر القوي الذي تركه النفوذ الإسماعيلي في الطوائف بعد اختفاء الدعوة الإسماعيلية بزمن طويل. إذ يقول الأستاذ كوبريلي[1] إن الطوائف في أناضوليا في القرن الثالث عشر كانت لا تزال تحتفظ بنظام متدرج في التنشيء يشبه بدقة النظام الإسماعيلي، كما أن

(١) رسائل إخوان الصفا. القاهرة ج ٤ ص ٢١٤

(٢) لم يصل الأستاذ ماسنيون مع الأسف بنظريته إلى النهاية إذ أنه يقول إن المصادر لا تزال غير كافية La Passion d'al-Hallaj Paris. 1922, Vol P. 83, 399, 410 لاحظ الأنسكلوبيديا الاسلامية. مادة نقابة. صنف. شد

(١) Köprülü — Les ourgines de l'Impire Otomn, لاحظ Paris, 1935 P. 711.

دراسة أصناف مختلفة فى أنحاء مختلفة من العالم الإسلامى أظهرت آثاراً مماثلة . وتظهر رسالة لأحد الأصناف المصرية كتبت فى القرن السادس عشر — كتاب الذخائر والتحف فى بيع الصنائع والحرف — كرهاً شديداً للحكم العثمانى الذى يعتبر سبب تعاسة رجال الأصناف ، ونجد فى الرسالة فكرة انتظار المهدى لينقذ البؤساء

وهكذا نجد الآثار الإسماعيلية التى هى ضد التعاليم السنية تستمر بين الأصناف ، ونلاحظ العبارة التالية فى هذه الرسالة « إن العلم يعطلونه وبعد أن تذهب دولة العثمان يطلبونه ويقوم سيدى محمد المهدى لكل حرفة لها صدر فى الصحابة ويأمرهم باتباع الطريق فيدخلون السياج ويسألون كل نقيب عارف بصير الأمر له محتاج حتى يقوم الدين ويصلح اليقين ويبطل العقد والثلاث ويضرب أعناق النقباء الجاهلين والمشايخ المتلبسين»

وأهم من ذلك وجود أفراد من طوائف مختلفة بين أفراد الأصناف ، وهى خاصة تميز هذه الأصناف بدقة عن النقابات الأوربية، إذ يقبل المسلم والمسيحى واليهودى تحت نفس الشروط فيها ، حتى إن بعضها يغلب فيها غير المسلمين كأصناف الأطباء والمتعاملين بالمعادن الثمينة ...الخ. وهذا يظهر الرابطة الدقيقة بين الأصناف والدعوة الاسماعيلية

يتضح من كل هذا أن الحركة الاسماعيلية لعبت دوراً هاماً فى تطور الأصناف الإسلامية ، وأنها تركت أثراً عميقاً خالداً فى حياتها الداخلية ، وإن لم يوجد برهان واضح يبين أن الحركة الاسماعيلية أوجدت الأصناف[1] ، ولكن الأكثر احتمالاً هو أن الاسماعيلية أعطت مصدراً جديداً ومعنى جديداً لتشكيلات كانت موجودة من قبل . فهل كانت هذه التشكيلات من أصل بيزنطى ، أو كانت تقليداً لمؤسسات بيزنطية معاصرة خارج حدود الامبراطورية الإسلامية ؟ هذا ما يستحيل البت فيه . فآثار تشكيلات الحرف فى الفترة التى سبقت الحركة الاسماعيلية والعامل الإغريقى العظيم فى الأفكار يؤيد تفسيراً من هذا القبيل

وهكذا تكون النقابات الإسلامية عبارة عن نظام يتركب من هيكل موروث من العالم اليونانى الرومانى وسلسلة من الآراء جاءت على الأخص من الحضارة الفارسية الآرامية وأنتجت حركة إسلامية إغريقية تهذيبية فلسفية تكتلية (على هيئة جميات) فى نفس الوقت

وفى أوسط القرن الثالث عشر حدثت فاجعة الفتح المغولى الذى حطم الخلافة وأخضع المسلمين من سنيين وغيرهم على السواء إلى سيطرة شعب أجنبى كافر ، وأفضى إلى طمس التميز الاجتماعى بين الاثنين « السنة وغير السنة » وسهل نوعاً ما اعتناق الجماهير للمذهب السنى . وباختفاء الحركة الاسماعيلية تحرج مركز الأصناف فى المجتمع السنى ، إذ بقيت بعض المصعوبات ، فأصحاب الحرف بقوا غير آمنين فى نير الطبقات الحاكمة فى الدولة . وربطوا أنفسهم بميول دينية هى وإن لم تكن خارجة عن الدين لم تكن دائماً فوق الشك ، وهذا هو للتصوف، فإلى زمن قريب كانت تصدر بعض التهم من علماء السنة ضد الأصناف كالأحكام التى أصدرها الفقيه السورى العظيم ابن تيمية، أو التى أصدرها الشيخ العثمانى (منيرى بلغرادى) فى القرن السابع عشر . وعلى كل فبالرغم من كل هذا العداء كانت حالة الأصناف فى الفترة التى تلت الفتح المغولى متوطدة، واستمرت كذلك حتى حركة الإصلاح التركى فى القرن التاسع عشر التى انتهجت خطة أدت إلى انحطاط الأصناف بصورة عامة . وترجع أكثر الوثائق وكل الأخبار التى لدينا عن النظام الداخلى للأصناف إلى الفترة التى تلت العهد المغولى

وقبل النظر فى النظام الداخلى يجدر بنا أن نفحص مشكلة هامة فى تاريخ الأصناف الإسلامية . فحوالى نفس الوقت نجد فيه الأصناف تختلط بطرائق الدراويش والصوفية نجدها على اتصال أشد بنظام جديد وهو الفتوة . أما أصل حركة الفتوة فغامض جداً ، وليس هذا بمحل البحث عن ذلك . ويكفى القول بأن تشكيلات الفتوة انتشرت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر فى جميع البلاد الإسلامية . وجمعية الفتوة هى مجموعة شبان (فتيان) يربطهم قانون أو دستور دينى وأخلاق يحتوى على واجبات وشعائر منظمة . فهم مسئولون عن ممارسة بعض الفضائل والقيام بخدمة عسكرية لخير الإسلام . ويظهر من هذا

(١) لهذا الحد قبلت نظرية ماسنيون من قبل (كوبريلى) و (كوردلفسكى) . أما (تنر) فيؤجل البت لأن البحث لم يتم .

أن الفتوة تشكل نظاماً إسلامياً يوازى الفروسية عند الأوربيين حتى أن فون همر Von Hammer ذهب إلى أن أصل الفروسية الأوروبية إسلامى[١]

وفى الفترة التى تلت الفتح المغولى مباشرة نجد الفتوة تميل أكثر فأكثر إلى الاتصال بالطرائق الصوفية وبأصناف الحرف بواسطة رابطة المعنوية (أى الانتماء إليها فى نفس الوقت) . بدأ هذا التطور فى الأناضول ، وانتشر بسرعة فى أنحاء العالم الإسلامى ، ولم يمض زمن طويل حتى أصبحت كلتا صنف وفتوة ذاتى مدلول واحد . أما كيف بدأ هذا الامتزاج ، وعلاقة هذه التشكيلات المختلفة ، فأمر غامض لم يوضح بصورة كافية حتى الآن[٢]

يلاحظ تشنر Taeschner ثلاثة أدوار فى تاريخ الفتوة ، وهى ثلاث خطوات لانحلال اجتماعى مطرد : فيقول إن حركة الفتوة بدأت كحركة فروسية أرستقراطية ، ثم تحولت فصارت حركة الطبقة المتوسطة فى القرن الثالث عشر ، وأخيراً انحطت فى القرن الخامس عشر إلى أكثر من ذلك وأصبحت حركة العوام . وهكذا اندمج الفتيان فى أصناف الحرف . ومن جهة أخرى يقول تورننج أن الصوفيين وأصحاب الحرف قلدوا جمعيات الفتوة مقتبسين شعائرها ومثلها العليا وأخيراً اسمها . وأكثر هذه التعليلات إقناعاً هو تعليل (كوردلفسكى) الذى يتفق مع كوبرولو[٣] على أن زمن اندماج مجموعات الفتوة بالأصناف هو فى القرن الثالث عشر فى الأناضول، ويربط ذلك بنظام هام هو نظام (أخيان روم) أو (أخوة الأناضول) . فقد ظهرت أخوة فى أناضوليا لأول مرة فى السنوات التى تلت الفتح المغولى مباشرة ، إذ كانت الفترة فترة فوضى واضطراب عام ؛ فالمغول الذين دحروا الدولة السلجوقية عجزوا عن التعويض عنها، وبذا اضطربت الإدارة. وفى هذا الدور الحرج تظهر الأخوة كمؤسسة قومية واسعة لها الرغبة والقدرة على التنظيم .

(يتبع) عبد العزيز الدورى

(١) لاحظ Von Hammer : Sur La Chevalué des Arabes, J. A. 1899, P.5

(٢) لاحظ Tœscher—Die Islamische Futuwwotbündr. Z. D. M. G. 1933, P. 6

(٣) كوبرولو Les ourgines 76-8, 110 — 112

١٤ . ٤٧

من شعر الربيع

عَينـــاكِ ...!

للأستاذ محمود حسن اسماعيل

عَيْنَاكِ لِى قَبَسَانِ فِى زَمَنِى الْمُحَيِّرِ هَادِيَانْ
وَشُعَاعَتَانِ مِنَ الطُّهْـ ـرَةِ وَالْفَدَاسَةِ وَالْحَنَانْ
وَسَكِينَتَانِ بِوَاحَةٍ سَجْـــوَاءَ عَـذْرَاءِ الْجَنَانْ
سِرُّ الْإِلٰهِ بِهَا خَـفِىٌّ الْغَيْبِ مَعْصُومُ اللِّسَانْ
أَشْجَتْ خَيَالِىَ مِنْهُمَا فِى وَحْدَتِى أُنْشُودَتَانْ
تَتَهَادَلَانِ عَلَى رَبَابِ لَمْ تُلَامِسْـهُ بَنَانْ
عَيْنَـاكِ لَوْ تَدْرِينَ فِى صَحْرَاءِ عُمْرِىَ وَاحَتَانْ
وَبُحَـيْرَتَانِ بِعَالَمٍ فَوْ قَ الْغُيُوبِ رَهِيبَتَانْ
بِالْحُبِّ وَالْأَنْغَامِ وَالْـــخَمْرِ الْمُقَدَّسِ تَخْفُقَانْ
اللهُ أَكْبَرُ ! بَلْ هُمَا مِنْ نَاىِ رَبِّكِ هَمْسَتَانْ
وَهُمَا لِرُوحِى فِى السَّنَا الْـ جَانِى لَدَيْكِ عِبَادَتَانْ
بَلْ نَشْوَتَانِ ، وَسَجْدَتَا نِ ، وَفِتْنَتَانِ ، وَتَوْبَتَانْ
وَهُمَا لِحُـــبِّىَ لَوْ عَلِمْـــتِ مِنَ الضِّيَاءِ تَمِيمَتَانْ
تَقِيَانِ قَلْبِىَ مِنْ أَذَى الدُّنْيَا وَشَمْوَذَةِ الزَّمَانْ
... ...
عَيْنَاكِ عَبْـدُ سَنَاهُمَا يَفْنَى وَلَا ...
... لَا تَدْرِيَانْ !

(ديوان المارف) محمود حسن اسماعيل

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية :
السنة الأولى فى مجلد واحد ٥٠ قرشا ، و٧٠ قرشا عن كل سنة من السنوات : الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة فى مجلدين .
وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشا فى الخارج عن كل مجلد